Arabian Gulf Journal of Humanities and Social Studies

ISSN: 3080-4086

الإصدار الخامس - العدد االثالث عشر || تاريخ الإصدار 2026-04-20

جدليّة القرية (الطبيعة/الغابة) والمدينة في أدب جبران خليل جبران

The Dialectic of the Village (Nature/Forest) and the City in the Literature of Khalil Gibran

فتحي أحمد عبد الله أحمد

Fathi Ahmad Abdallah Ahmad

جامعة النجاح الوطنيّة – أستاذ مشارك في جامعات الداخل الفلسطيني

DOI: https://doi.org/10.64355/agjhss51315

مجلة خليج العرب للدراسات الإنسانية والاجتماعية || هذه المقالة مفتوحة المصدر موزعة بموجب شروط وأحكام ترخيص مؤسسة المشاع الإبداعي(CC BY-NC-SA)

الملخص:
يتناول هذا البحث تمثّلات ثنائيّة القرية/المدينة في أدب جبران خليل جبران، بوصفها بنية دلاليّة مركزيّة في خطاب أدب المهجر، تنطوي على جدليّة عميقة بين الروحي والمادّي، والأصيل والمُصنَّع، والطبيعة بوصفها حاضنة للقيم الإنسانيّة، والمدينة باعتبارها فضاءً للاغتراب والتشيؤ. وينطلق البحث من مقاربة منهجيّة تكامليّة تجمع بين **المنهج الوصفي التحليلي** في رصد الظواهر النصيّة، و**المنهج التأويلي** في تفكيك أنساقها الرمزيّة واستنطاق أبعادها الفلسفيّة، مع الاستئناس بإجراءات نقديّة ذات بعد بنيوي للكشف عن العلاقات العميقة بين العناصر المكانيّة وبنية الخطاب الجبراني. ويعتمد البحث على تحليل نماذج مختارة من نصوص جبران الشعريّة والنثريّة، للكشف عن الكيفيّة التي يُعاد بها تشكيل المكان من معطى جغرافي إلى بنية رمزيّة دالّة، تتقاطع فيها أبعاد الاغتراب والحنين والتمرّد الروحي. كما يُبرز كيف تتجاوز هذه الثنائيّة بعدها المكاني لتغدو تمثيلًا لأزمة الإنسان الحديث في مواجهة تحوّلات الحضارة.

ويخلص البحث إلى أنّ جبران لا يقدّم القرية والمدينة بوصفهما فضاءين متقابلين فحسب، بل يعيد صياغتهما ضمن رؤية فلسفيّة تجعل منهما مجازًا معرفيًّا يعكس انقسام الذات الإنسانيّة وتوقها إلى التوازن بين الروح والمادّة، بما يرسّخ البعد الإنساني الكوني في أدبه.

الكلمات المفتاحية: جبران خليل جبران، أدب المهجر، الطبيعة، القرية، المدينة، الاغتراب، الرمزيّة، البنية الدلاليّة.

Abstract:

This study examines the representations of the village/city dichotomy in the works of Kahlil Gibran as a central semantic structure within Mahjar (émigré) literature. This dichotomy embodies a profound dialectic between the spiritual and the material, the authentic and the artificial, nature as a nurturing ground for human values, and the city as a space of alienation and reification.

The study adopts an integrative methodological approach that combines a **descriptive-analytical method** to identify and examine textual phenomena, with a **hermeneutic approach** aimed at deconstructing symbolic systems and probing their philosophical dimensions. This is further supported by structural-oriented critical procedures that reveal the deep interrelations between spatial elements and the discursive structure in Gibran's writings.

Drawing on selected samples from Gibran's poetic and prose works, the study explores how place is reconfigured from a mere geographical entity into a meaningful symbolic construct, wherein dimensions of alienation, nostalgia, and spiritual rebellion intersect. It also demonstrates how this dichotomy transcends its spatial framework to become a representation of the modern human condition amid the transformations of civilization.

The study concludes that Gibran does not merely present the village and the city as opposing spaces; rather, he rearticulates them within a philosophical vision that transforms them into epistemological metaphors reflecting the fragmentation of the human self and its aspiration for balance between spirit and matter. In doing so, he reinforces the universal human dimension of his literary discourse.

Keywords: Kahlil Gibran; Mahjar literature; nature; village; city; alienation; symbolism; semantic structure.

المقدمة

تتجاوز ثنائيّة المدينة والقرية في أدب المهجر حدود التقابل المكاني لتغدو بنيةً فكريّةً عميقةً تُجسِّد مأزق الإنسان الحديث في انقسامه بين نداء الروح وإغواء المادّة، وبين الحنين إلى الأصل والانخراط في صيرورة الحداثة. فهي ليست مجرّد تمثيل لفضاءين متمايزين، بل هي تعبير عن توتّر وجوديّ يلامس جوهر الكينونة الإنسانيّة في سعيها الدائم إلى تحقيق التوازن بين الداخل والخارج، بين البراءة الأولى وتعقيد التجربة الحضاريّة.

وفي هذا الأفق، يبرز جبران خليل جبران بوصفه صوتًا إبداعيًّا وفكريًّا استطاع أن يحوّل هذه الجدليّة إلى رؤية فلسفيّة ذات أبعاد كونيّة، حيث لم تعد المدينة والقرية مجرّد إطارين جغرافيين، بل غدتا علامتين رمزيّتين تختزلان مسار الإنسان في اغترابه وتوقه إلى الخلاص. فقد خبر جبران المدينة بوصفها فضاءً للمعرفة والانفتاح، غير أنّه وعى في عمقها اغترابًا روحيًّا وانفصالًا عن القيم الأصيلة، في حين ظلّت القرية متجلّية في وعيه كحلم أنطولوجي بالعودة إلى النقاء الأول، حيث تنسجم الذات مع الطبيعة وتستعيد وحدتها المفقودة.

ومن ثمّ، فإنّ هذه الجدليّة في أدب جبران لا تُقرأ في إطارها الوصفي، بل تُستبطن بوصفها خطابًا نقديًّا للحضارة الحديثة، وسؤالًا مفتوحًا حول مصير الإنسان في عالم تتسارع فيه القيم الماديّة على حساب المعنى. إنّها محاولة لإعادة التفكير في مفهوم المكان ذاته، لا باعتباره حيزًا خارجيًّا، بل كيانًا دلاليًّا يعكس تحوّلات الذات ويكشف عن قلقها الوجودي، بما يجعل من النصّ الجبراني فضاءً للتأمّل الفلسفي في جدليّة الانتماء والاغتراب، والبحث الدائم عن المعنى في عالم متحوّل.

وإذْ ذاك يمكن القول إنّ جدليّة المدينة والقرية تُعدّ إحدى أبرز الأفكار المحوريّة التي تتردّد في أدب المهجر، إذْ تعبّر عن صراع الوجود الإنساني بين بيئتين تختلفان في القيم، والنظرة إلى الحياة، وإيقاع الزمن. ومن بين أدباء المهجر الذين جسّدوا هذه الجدليّة بعمق ووعي فلسفي، يأتي جبران خليل جبران الذي شكّلت المدينة في حياته تجربةً مزدوجة: بوّابة للمعرفة والانفتاح من جهة، ومصدرًا للاغتراب الروحي والقيم الماديّة من جهة أخرى، فيما ظلّت القرية رمزًا للطبيعة والفطرة الإنسانيّة الأولى، للبراءة، وللسحر والجمال الحالم غير المصطنع، وللانسجام مع قوانين الوجود. ويُعَدّ جبران خليل جبران من أبرز مَنْ بلور هذه الجدليّة ضمن رؤية روحيّة – فلسفيّة تتجاوز الوصف المكاني إلى بناء نموذج للإنسان في مواجهته لقيم العصر.

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى تحليل الرؤية الخاصّة بجبران في تصوّره لعلاقة المدينة بالقرية، وتحديدًا الطبيعة الخلّابة في لبنان، والتي تتمثّل بالغابة ببعدها الدلالي، وهي علاقة جدليّة مليئة بالمتناقضات، ويتخفّى وراءها صراع حادّ بين التنافس غير الشريف في المدينة الفاقد لكلّ قيمة أخلاقيّة، وبين المثلِ والحسّ الإنساني المرهف بصفائه ونقائه من شوائب حضارة ماديّة مزيّفة، وذلك عبر قراءة مجموعة من نصوصه الشعريّة والنثريّة الشعريّة، واستجلاء البعد الرمزي والمعرفي لهذه الجدليّة في مشروعه الأدبي والفكري.

ولم يُغفلِ الباحثُ ما أُنجز حول هذه الرواية من دراساتٍ سابقة، بل عاد إلى معظمها مراجعةً وتمحيصًا، وعيًا بمنجز الدارسين قبله، وحرصًا على ألّا يشتغل في فراغٍ معرفيّ. ومن ثمّ، اتّجه إلى استكشافِ مساحاتٍ جديدةٍ في النصّ، مُقاربًا جوانبَ لم تنل حظَّها الكافي من البحث والدراسة.

منهجيّة البحث

يعتمد هذا البحث المنهج الاستقرائي، وكذلك المنهجين: الوصفي الذي يصف الظاهرة المكانيّة في شعر جبران، والتحليلي الذي يهدف إلى رصد الأفكار المكوّنة لهذا التصوّر الجدلي القائم بين الطبيعة والمدينة، وتحليل البِنية الشعريّة والرمزيّة والذي تجلّى في أدب جبران، وعبّر عن توجّه إنساني أصبح من محاور المدرسة المهجريّة.

إشكاليّة البحث

يسعى هذا البحث إلى معالجة الإشكاليّة الآتية:

كيف تتجلّى جدليّة المدينة والقرية في شعر جبران خليل جبران، وما البنى الرمزيّة والفلسفيّة التي تحملها هذه الثنائيّة في مشروعه الشعري؟

فرضيّات البحث

1- تمثّل القرية في شعر جبران فضاءً روحيًّا يتصل بالذاكرة والبراءة والطبيعة.

2- تمثل المدينة فضاءً ماديًّا خانقًا يخلو من المشاعر الإنسانيّة، ويعكس حالة اغتراب الإنسان الحديث.

3- لا يقف جبران عند حدود الوصف المكاني، فهو لا ينظر إليه على أنّه مجرّد جغرافيا، بل يعيد إنتاج المكان كشريحة رمزيّة ذات بعد معرفي ودلالي.

المطلب الأوّل

العناصر المكوّنة لجدليّة القرية والمدينة

الفرع الأوّل: القرية بوصفها فضاءً روحيًا وإنسانيًا، والخلفيّة التاريخيّة

تتبدّى القرية، بوصفها أفقًا للروح والطبيعة، لا مجرّد حيّزٍ جغرافي، بل بوصفها فضاءً أنطولوجيًّا يؤوي الكينونة الإنسانيّة في صفائها الأوّل؛ إنّها مهدُ البراءة، ومقامُ الألفة العميقة بين الإنسان والطبيعة، حيث يتجلّى الوجود في بساطته الأولى قبل أن تكدّره تشوّهات الحضارة. في القرية تنبعث ذاكرة الأصل، ويتجذّر الإحساس بالانتماء، فتغدو مصدر الإلهام ومرآة الذات في أنقى صورها، كما لو أنّها واحةٌ روحيّة تنتصب في مواجهة قسوة العالم.

وعلى الضدّ من ذلك، تلوح المدينة بوصفها فضاءً متشظّيًا، مثقلًا بثنائيّات الصخب والاغتراب، والتنافس المحموم، والاستقطابات السياسيّة والدينيّة التي تعصف بتوازن الإنسان الداخلي. وإذا كانت الطبيعة في القرية تمثّل الحقيقة الأولى التي فُطر عليها الإنسان—تلك الفطرة السويّة المنسجمة مع إيقاع الوجود—فإنّ الانتقال إلى المدينة يغدو ضربًا من الاغتراب، حيث تتنكّر الذات لأصلها، وترتدي أقنعةً لا تنتمي إلى جوهرها.

في القرية، تتعانق راحة الفكر مع سكينة الجسد، وتتحرّر الروح من أثقال الزيف؛ هناك ينحلّ التعقيد، وتضمحلّ الأقنعة الاجتماعيّة، ويستعيد الإنسان قدرته على التأمّل الصافي. إنّها فضاءُ الانكشاف والصدق، حيث تتوهّج الروح ببساطة الحياة، وتتطهّر من نفاقٍ مُصطنع، لتعود إلى ينابيعها الأولى، متصالحةً مع ذاتها والعالم.

هكذا هي الطبيعة الساحرة التي تمثل البراءة، العشق الأبدي، وترمز إلى الصفاء، والتراث اللبناني الأصيل، هي مصدر إلهامه وشعوره بالانتماء، هي الواحة الفكريّة في صحراء الحياة القاسية التي تمثلها المدينة والمليئة بثنائيّة المتناقضات التي لا تعرف فواصلًا من حدود، الصخب والضجيج، والتنافس غير الشريف، والاستقطاب السياسي والديني، حيث تجد في الطبيعة الحقيقة الأبديّة التي خلق عليها البشر، وهي الفطرة الإنسانيّة السويّة البسيطة، لكنّها خلعت رداءها وتقمّصت أدوارًا لم تخلق في الأصل لها حين غادرت إلى المدينة، في الطبيعة هناك الراحة الفكريّة والجسديّة التي طالما يتوق الإنسان في المدينة لها لكنّه لا يجدها، لأنّ راحة الفكر تعانقها راحة الجسد، هناك تزول القيود عن العقل، تتنور الأذهان، وتصفو الروح بوهج الصدق وبساطة الحياة التي تخلو من أيّ تعقيد لا لزوم له، وتصنّع مفتعل، ونفاق اجتماعي مقيت.

ويتجلّى الريف في أدبيّات جبران بوصفه أصل الوعي والشعور، إذ القرية تمثّل الذاكرة الأولى، يقول جبران في رسائله:

"أحنّ إلى تلك التلال التي كانت تحدّثني، وإلى الوادي الذي كان ينام على ساعدَي الرب" (جبران 1980، 22).

هذا الحنين ليس وصفًا جماليًّا فحسب، بل هو عودة فكريّة وروحيّة إلى الذات الأولى.

وفي هذا السياق تبرز الطبيعة ككيان حيّ

في *المواكب*، تصبح الطبيعة حضنًا روحيًّاً:

"رجعتِ الطيورُ إلى وُكورها والليلُ يمدّ جناحَهُ فوق الحقولِ الخاشعة" (جبران 1965).

هنا تتداخل عناصر الصورة (الطيور – الليل – الحقول) لتشكّل مشهدًا يمتلئ براحة البال وينعم بالهدوء والسكينة، وهذا بالذات هو نقيض صخب المدينة، وضجيجها . وبخصوص رمزيّة عناصر القرية، فيمكن رؤية مكوّناتها من خلال:

- الجبل : رمز السمو — «في الجبل شيءٌ من صمت الله».
- النهر : حرية الجريان — «النهر يُنشِد للسماء أغنية الحرية».
- الشجرة : الكينونة/جذور وبقاء — «الشجرة التي تعانق السماء».

هذه الرموز تعيد تشكيل القرية كمكان ميتافيزيقي لا جغرافي.

ولعلّ الخلفيّة التاريخيّة والفكريّة لنشأة الجدليّة جاءت بسبب الاغتراب المهجري، فقد نشأ جبران في قرية بشري شمال لبنان، (6 يناير 1883 - 10 أبريل 1931 م) في بيئة ريفيّة طبيعيّة متواضعة، هي أقرب إلى البساطة والبدائيّة. وحين انتقل لاحقًا إلى بوسطن ثم نيويورك، وجد نفسه أمام مدينة حديثة ذات طبائع ثقافيّة واقتصاديّة تختلف جذريًّا عمّا عاشه وعرفه، وكان هذا الانتقال المفاجئ قد ولّد في نفسه إحساسًا مزدوجًا بالدهشة والنفور.

انعكاس الاغتراب على رؤيته الفنيّة

يُعدّ الاغتراب محورًا بنيويًّا في تشكيل الرؤية الفنّيّة لدى جبران خليل جبران، إذْ لا يتبدّى بوصفه تجربةً نفسيّةً عابرةً، بلْ كحالة وجوديّة شاملة تُعيد صياغة علاقة الذات بالعالم. ففي سياق الهجرة والانفصال عن الجذور الأولى، تتكثّف لدى جبران حساسيّة جماليّة خاصّة، تقوم على جدل دائم

بين الحنين إلى الأصل والرغبة في تجاوز حدوده، ممّا يفضي إلى بناء خطاب فنّي ذي طبيعة تأمّليّة–رمزيّة. إنّ اغترابه لا ينحصر في البعد المكاني، بلْ نراه يمتدّ إلى اغتراب ثقافي وروحي، يدفعه إلى إعادة مساءلة القيم السائدة، ونقد البنى الاجتماعيّة والدينيّة الجامدة، واستبدالها برؤية إنسانيّة كونيّة تتجاوز الانتماءات الضيّقة. ومن ثمّ، تتجلّى في أعماله نزعةٌ توحيديّة تسعى إلى التوفيق بين المتناقضات: بين الشرق والغرب، الجسد والروح، الفرد والجماعة، حيث يغدو الفنّ عنده أداةً للخلاص الوجودي، ومساحةً لإعادة بناء الذات في أفقٍ من الحرّيّة والانسجام. وبهذا المعنى، يتحوّل الاغتراب في تجربة جبران من معاناةٍ إلى طاقةٍ خلّاقة، تُنتج خطابًا فنّيًا مشحونًا بالرمزيّة والشفافيّة، ومفتوحًا على أبعادٍ فلسفيّة وإنسانيّة عميقة.

- القرية = (تمثّل) الحنين، الأصل، الصفاء
- المدينة = الحداثة، الصراع، القيم الماديّة

وبذلك أصبحت المدينة بالنسبة إلى جبران مجازًا للافتراق عن الذات، بينما غدت القرية صورة للاحتماء بالذاكرة الأولى.

الفرع الثاني: المدينة بوصفها فضاءً للاغتراب

تتجلّى المدينة في أدب جبران بوصفها فضاءً كثيفًا للاغتراب، لا بمعناه المكاني فحسب، بلْ في أبعاده الوجوديّة والروحيّة العميقة. فهي ليست مجرّد إطارٍ حضريّ حديث، بلْ بما تمثّله من بنية رمزيّة تنطوي على اختلال العلاقة بين الإنسان وذاته، وبين الفرد والعالم. في المدينة، يتبدّد صفاء الفطرة الأولى، وتغدو العلاقات الإنسانيّة محكومةً بمنطق المنفعة والتشييء، حيث يُختزل الإنسان إلى وظيفةٍ أو قناعٍ اجتماعيّ، فاقدًا جوهره الأصيل. ومن ثمّ، تتكاثر صور العزلة وسط الزحام، ويغدو الضجيج الخارجي مرآةً لصمتٍ داخليّ عميق.

كما تكشف المدينة، في الرؤية الجبرانيّة، عن عالمٍ مأزومٍ بالقيم الزائفة، حيث تتنازع السلطةُ والمالُ والدينُ المؤدلجُ تشكيلَ الوعي، فيُدفع الإنسان إلى اغترابٍ مضاعف: اغترابٍ عن طبيعته، واغترابٍ عن الآخر. ولعلّ أخطر ما في هذا الفضاء أنّه يُنتج وعيًا زائفًا يُقنع الذات بضروراتٍ لا تنتمي إلى جوهرها، فتتقمّص أدوارًا مفروضةً عليها، وتغترب عن حقيقتها الأولى.

وفي مقابل هذا الانفصال، يظلّ الحنين إلى الطبيعة—بوصفها أصلًا روحيًّا—فاعلًا في النصّ الجبراني، حيث تُستدعى القرية أو الفضاء الطبيعي كبديلٍ دلاليّ يستعيد التوازن المفقود. وهكذا، تغدو المدينة عند جبران مسرحًا للصراع بين الزيف والحقيقة، وبين القيد والتحرّر، ومجالًا تتكشّف فيه مأساة الإنسان الحديث الذي فقد صلته بالجوهر، وغدا يبحث عن ذاته في عالمٍ لا يعكسه.

ويظهر للمتتبّع لأدبيّات جبران أنّ المدينة بصورتها الصناعيّة وببعدها المؤسّسي تبدو كأزَمة حضاريّة، حيث يكتب جبران في *العواصف*: "في المدن الكبيرة تُبتلع الأرواح كما تُبتلع القطرة في لجّة البحر» (جبران 1950، 14).

والابتلاع هنا استعارة دالّة على فقدان الفردانيّة وذوبان الذات في المجموع، فالإنسان لا يشعر بكينونة وجوده، ولا يستطيع أنْ يتخطّى الحواجز، فكره مصادر، وقيمه لا يعبأ بها أحد، المقاييس هناك ماديّة، والتنافس بين البشر يفتقد النزاهة والشرف.

وفي غمرة هذا الغياب هناك عجز في التواصل، فالكلمة تفقد وقعها، والإحساس لا وجود له ولا معنى، يقول جبران: "أرى الناس في المدينة يمشون ولا يسيرون، يتكلمون ولا يفصحون» (جبران 1950، 55).

وهنا تتبدّى المدينة بوصفها منظومةً من العلاقات المبتورة، حيث ينفصم النسيجُ الإنسانيّ إلى ذراتٍ متجاورةٍ لا متواصلة، ويغدو التواصلُ مجرّد محاكاةٍ شكليةٍ لفعلٍ فقد جوهره. في هذا الفضاء، تنزاح اللغة عن وظيفتها الدلاليّة، فتتحوّل إلى ضجيجٍ صوتيّ لا يُحيل إلى معنى، ولا يؤسّس لحقيقة، بلْ نجده يُكرّس فراغًا تواصليًّا يعمّق العزلة بدل أنْ يبدّدها. إنّها لغةٌ مُفرَغة من روحها، تُستعمل لا للكشف عن الحقيقة، بلْ للحجب وضياع الذات، ولا للتلاقي، بل للتباعد والشتات، فتغدو إحدى علامات الاغتراب الكبرى في التجربة الجبرانيّة.

ومن هذا المنظور، يتّخذ نقد جبران للحضارة الغربيّة طابعًا فلسفيًّا يتجاوز الإدانة السطحيّة، إذْ ينفذ إلى جوهر البنية الحضاريّة التي قامت—في تصوّره—على تغليب المادّة على الروح، والآلة على الإنسان. فهي حضارةٌ صناعيّة أعلت من شأن الإنتاج والاستهلاك، لكنّها، في المقابل، همّشت القيم الأخلاقيّة العميقة، وأفرغت السلوك الإنساني من أبعاده الروحيّة. وهكذا، توارت الفضائل خلف قشرةٍ كثيفة من الفردانيّة المتضخّمة، حيث تتغذّى الأنا على ذاتها في نزعةٍ نرجسيّة تُقصي الآخر وتُشيّئه. وفي خضمّ هذا التحوّل، يفقد الإنسان مركزه ككائنٍ أخلاقيّ وروحيّ، وإذا به يصبح مجرّد ترسٍ في منظومةٍ لا تعترف إلّا بمنطق القوّة والمنفعة، الأمر الذي يجعل من المدينة الحديثة، في الوعي الجبراني، فضاءً لأزمة القيم، وانهيار المعنى، واغتراب الذات عن حقيقتها الأصيلة.

وفي المحصّلة تظهر المدينة كمنظومة علاقات مقطوعة، حيث تتحوّل اللغة إلى أصوات بلا دلالة، ولا تؤدّي هدفًا، ولا تحقّق غايةً. ولعلّ أبرز ما يمكن أنْ نلاحظه في أدبيّات جبران نقده الحادّ للحضارة الغربيّة، فهي حضارة صناعيّة غابت من صفحاتها القيم الأخلاقيّة العالية، والسلوكيّات الإنسانيّة الراقية، وتوارت الفضائل خلف غلاف كثيف من الأنانيّة والنرجسيّة المفرطة.

في *المواكب*:

"أعطيتم العمر قيودًا
وأقمتم حول القلب سجونا".

هذه الصورة تكشف عن نقد جبران لمنطق الحداثة حين ينقلب إلى قيد يحاصر الروح والفكر والوجدان، ليصبح هذا الإنسان مجرّد آلة صمّاء، وهذا أقسى ما يعاني من الإنسان الغربي الذي يصل به الأمر إلى نهايات قاسية، ومصير بائس.

فالمدينة بهذا التصوّر هي رمز الماديّة والانحطاط، تمثّل الاغتراب، السطحيّة، البعد عن القيم الروحيّة، والزيف الاجتماعي، ممّا يثير حزن جبران وشجنه، ويعمّق منسوب الألم لديه.

وهنا يزداد حجم الصراع الداخلي لدى جبران، فيعيش هذا الصراع بين رغبته في التحرّر من قيود المدينة، وميل قلبه للعودة إلى بساطة القرية، وهي قضيّة تبدو جليّة في أعماله الشعريّة والنثريّة.

وتبدو المظاهر الشعريّة لجدليّة المدينة والقرية من خلال:

التركيز على الصورة المكانيّة في شعر جبران، حيث يتعامل جبران مع المكان بوصفه كيانًا روحيًّا لا جغرافيًّا. فحين يكتب عن القرية، فهو يستحضر الطبيعة والطفولة والأمومة، فيما تتحوّل المدينة إلى فضاءٍ خانق "كئيب"، تصطدم فيه الروح بأسوار من الزيف الماكر، والنفاق الاجتماعي المليء بالأكاذيب والخداع.

أ. القرية: معبد الطبيعة

تظهر القرية في شعره كفضاء نظيف يتيح للإنسان استعادة صفائه الداخلي:

- الطبيعة = امتداد للذات
- الينابيع، الجبال، الغابات = رموز للخصب الروحي
- سكان القرية = بسطاء، أتقياء، منسجمون مع إيقاع الكون

في قصائده ذات النفس الصوفي، تصبح الطبيعة القرَويّة مرآةً للخلود، ومرفأً للهارب من ضجيج المدن.

ب. المدينة: فضاء الاغتراب

تتخذ المدينة في خطاب جبران طابعًا نقديًّا لاذعًا:

- تكدّس عمراني = قيد على الروح
- المجتمع المديني = طبقات، صراع، رياء
- العلاقات الإنسانيّة = منفعيّة، ومصالح شخصيّة لا علاقة لها بالمجموع

غالباً ما يصوّر جبران المدينة كمكانٍ "يبتلع" الإنسان، ويحوّله إلى جزء من آلة ضخمة تخلو من المشاعر الإنسانيّة الرقيقة.

المطلب الثاني

البعد الفلسفي لثنائيّة المدينة/القرية

يُشكّل البعد الفلسفي لثنائيّة المدينة/القرية في أدب جبران خليل جبران أحد المحاور المركزيّة التي تتجاوز حدود الوصف المكاني لتغدو بنيةً رمزيّةً عميقةً، تكشف عن صراع وجودي بين نمطين من الوعي والحياة: وعيٍ طبيعيٍّ أصيل، وآخر صناعيٍّ مُغترب.

فالقرية، في التصوّر الجبراني، ليست مجرّدَ حيّز جغرافي، بلْ هي تمثيل صادق للبراءة الأولى، وللاتصال الحيّ بين الإنسان والطبيعة، حيث تتجلّى القيم الروحيّة في أنقى صورها وأبهاها. إنّها فضاء الصفاء الداخلي، حيث الإنسان كائن منسجم مع ذاته، غير منقسم، وغير خاضع لإكراهات الحضارة الماديّة. ومن هذا المنظور، تغدو القرية تجسيدًا لما يمكن تسميته بـ"الوجود الأصيل"، حيث الكينونة لا تزال متحرّرةً من الزيف والتشيؤ، وما يواكب كلّ ذلك من ضغوط نفسيّة وفكريّة.

في المقابل، تُمثّل المدينة عند جبران فضاءً للاغتراب والانفصال؛ فهي ليست فقط مركزًا للتقدّم المادّي، بلْ هي أيضًا بؤرة لانكسار الروح الإنسانيّة تحت وطأة المظاهر، والمصالح، والعلاقات النفعيّة. تتحوّل اللغة فيها إلى أداة تواصل فاقدة للحميميّة، وتغدو العلاقات الإنسانيّة سطحيّةً بامتياز، ومشروطةً بالمصالح الآنيّة غير الشريفة. وهنا يتبدّى البعد الفلسفي في نقد جبران لما يمكن اعتباره "تشييئ الإنسان"، حيث يُختزل الفرد إلى وظيفة أو مصلحة، فاقدًا جوهره الروحي.

ومن خلال هذه الثنائية، يُعيد جبران طرح سؤال الإنسان في العالم: هل يتجلّى الوجود الحقيقي في الاندماج مع الطبيعة، أم في الانخراط في صيرورة الحضارة؟ غير أنّه لا يقدّم إجابة تبسيطيّة، بلْ إنّه يشيّد جدليّةً معقّدةً؛ فالقرية ليست مثاليّةً على نحو مطلق، كما أنّ المدينة ليست شرًّا خالصًا، بلْ إنّ التوتر القائم بينهما يكشف عن مأزق الإنسان الحديث، العالق بين حنين إلى الأصل، وانجذاب نحو الحداثة.

إنّ هذا الجدل الدائم يلامس مفاهيم فلسفيّةً كبرى، مثل الاغتراب (Alienation) والوجود الأصيل، ويجعل من ثنائيّة المدينة/القرية عند جبران أداةً لتفكيك أزَمة الإنسان المعاصر، لا سيّما في سياق أدب المهجر، حيث تتضاعف تجربة الانفصال عن الجذور. فالمهاجر الجبراني يعيش اغترابًا مزدوجًا: اغترابًا مكانيًّا عن القرية، واغترابًا وجوديًّا داخل المدينة.

وهكذا، لا تُقرأ هذه الثنائيّة بوصفها تقابلًا جغرافيًّا فحسب، بلْ بوصفها بنيةً فلسفيّةً تكشف عن انقسام الذات الإنسانيّة بين ما هي عليه، وما ينبغي أنْ تكونه؛ بين جوهرٍ يبحث عن معنى، وعالمٍ يمعن في تفريغه من هذا المعنى.

الفرع الأوّل: محاور البعد الفلسفي كما يصوّره جبران

لم يكن جبران شاعرًا أو كاتبًا، ولا حتّى فيلسوفًا أو رسّامًا فقط، بلْ كان كلّهم جميعًا. كان صوتًا يصدر من الأعماق يحاول الوصول إلى الرّوحِ التي تبحث عنِ المعنى في فضائها الرحب، وشاعرًا عاطفيًّا يعاين الحياة بعقلانيّة فيلسوف حين أبدع في وصف الواقع الذي عاشه بداية القرن العشرين، أصبح من أبرز شعراء المهجر وأشهرهم.

وبقي الصوت شاهدًا، فالحكمة لا تموت حين تكون أدبًا، والشعر ديوان الأمّة وسجّل تاريخها، وللذاكرة ما يكفي لتبقيه حاضرًا أبدًا. . لم يكن اسمًا عابرًا... كان صوتًا يعرف متى يعلو دفاعًا عن الحقّ، ومتى يهدأ احترامًا للألم الإنساني. كان حضوره مغروسًا في خفايا الروح، وفي أعماق الذاكرة وصميم الوجدان، وظلّه الممدود كغابات الأرز في الشموخ كان يتسع للجميع. وإنّ الذين عاشوا للناس ومن أجل الناس سيبقون في حياتهم، وفي صميم الإحساس، وإن توارى الجسد وراء غياب طويل الأمد، وفي زحمة أحداث التاريخ.

ولم يكن غريبًا أنْ تنطويَ ثنائيّة المدينة/القرية على بُعدٍ فلسفي عميق يتجاوز الجغرافيا والعمران إلى أسئلة الإنسان والوجود والمعنى. ويمكن مقاربة هذا البعد في أدب جبران عبر أربعة محاور رئيسة تعكس دلالاته ومحتواه:

1. الإنسان بين الطبيعي والمصطنع

يُنظر إلى القرية عادةً باعتبارها فضاءً أقرب إلى الطبيعة: الإيقاع البطيء، الاستمراريّة، الاعتماد المباشر على الأرض. أمّا المدينة فهي فضاء مصطنع من إنتاج الإنسان: بِنية تحتيّة، قوانين صارمة، تقسيم عمل معقّد.

وفلسفيًّا، يطرح هذا التقابل سؤالًا حول طبيعة الوجود الإنساني:

- هل الإنسان كائن ينتمي أصلًا إلى الطبيعة فيبحث عن قرية رمزيّة يعود إليها؟
- أم هو كائن يصنع عالمًا خاصًّا به، عالم المدينة، بوصفه امتدادًا لإرادته وقدرته على خلق النظام؟

هنا تظهر إشكاليّة التوتّر بين العفويّة والتصنيع، بين الجذور والإبداع البشري.

2. البساطة مقابل التعقيد

في القرية، تتقلّص الفواصل بين الإنسان ونتائج أفعاله؛ تنتج البذرة ثمرةً يراها بعينه.
في المدينة، تتّسع الفواصل: الوظائف متخصّصة، العلاقات متشعّبة، والإنسان يتحوّل إلى آلة ضمن منظومة واسعة غير متجانسة.

هذا التصوّر يقود إلى تساؤلات فلسفيّة حول:

- معنى الفعل الإنساني : هل يفقد الفعل قيمته عندما يغدو مجزّأً؟
- هوية الفرد : هل ينحلّ الفرد في تعقيد المدينة، أم يكتسب حرّيّته بفضل تنوّعها؟

قد يرى البعض أنّ القرية تمثّل شفافيّة الوجود، بينما المدينة تمثل غموضه الخلاّق.

3. القيم والأخلاق: بين سلطة الجماعة وأفق الفرد

لا يمكن فهم ثنائيّة القرية/المدينة خارج أفقها القيمي، إذْ تتشكّل الأخلاق فيهما بوصفها انعكاسًا لطبيعة الاجتماع ذاته. ففي القرية، يتأسّس النظام الأخلاقي على مرجعيّة جمعيّة محافظة، حيث تتوارث القيم عبر العادة والتقليد، ويغدو المجتمع رقيبًا خفيًّا يُؤطّر سلوك الفرد، فينصهر الضمير الشخصي في ضمير الجماعة.

أمّا في المدينة، فتتخذ القيم مسارًا أكثر تفكّكًا وتعدّدًا، إذْ تنبثق من الفرد بوصفه مركز الاختيار، فتغدو الأخلاق أقرب إلى مشروع ذاتي مفتوح على التجريب. غير أنّ هذه الحريّة، على اتّساعها الظاهري، قد تنطوي على قدرٍ من التمزّق؛ فهي حريّة مجتزأة، واستقلال قد يكون موهومًا، في ظلّ تعدّد الأنماط وتنازع المرجعيّات.

وهكذا، تتأرجح الأخلاق بين يقين الجماعة الذي يمنحها الثبات، وقلق الفرد الذي يفتحها على إمكانات لا نهائيّة.

وإذنْ ينظر إلى موضع القيم والأخلاق، وتنازعها بين الجماعة أم الفرد؟

لا تنفصل المدينة والقرية عن سياق القيم:

- في القرية، يميل النظام الأخلاقي إلى الجمعيّة والمحافظة : القيم تنتقل بالعادة، والمجتمع يراقب الفرد.
- في المدينة، القيم غالبًا فرديّة وحداثيّة : حريّة مجتزأة، استقلال وهمي، تجريب، وتعدّد في أنماط العيش.

وفي الجانب الفلسفي، تنفتح هذه الثنائيّة على سؤالٍ جوهريّ يمسّ أصل الأخلاق ومنبعها العميق:

أهي ثمرةُ الذاكرة الجماعيّة، تنبثق من التقاليد الراسخة والهوية المشتركة كما تتجلّى في فضاء القرية، حيث يتشكّل الضمير ضمن نسيج الجماعة؟

أم أنّها فعلُ اختيارٍ حرّ، تصوغه ذاتٌ مفردة تعي استقلالها، وتُنشئ قيمها بمعزلٍ عن الإكراهات، كما في المدينة حيث تتسيّد فردانيّة القرار؟

إذن فلسفيًّا، تطرح الثنائيّة سؤالًا حول أساس الأخلاق:

- هل الأخلاق نابعة من التقاليد والهوية المشتركة (كما في القرية)؟
- أم من وحدانيّة الذات وقدرتها على اختيار قيمها (كما في المدينة)؟

وهكذا، تتأرجح الأخلاق بين انتماءٍ يُؤسّسها، وحريّةٍ تُعيد ابتكارها.

4. الزمان والوجود: جدليّة الإيقاعين في تشكيل الحياة

الزمن القروي دائري: الفصول، الزراعة، الطقوس المتكرّرة، وهنا يتّخذ الزمن في الفضاء القروي طابعًا دائريًّا، حيث تتعاقب الفصول في نسقٍ متكرّر، وتنتظم الحياة وفق إيقاع الزراعة والطقوس المتوارثة، فيغدو الوجود امتدادًا مستمرًّا لدورة الطبيعة.

الزمن المديني خطّي: إنتاج، كفاءة، مستقبل، تطوّر، حيث يتجلّى الزمن في المدينة بوصفه خطّيًّا متسارعًا، تحكمه معايير الإنتاج والكفاءة، ويتّجه دومًا في تطلّعه نحو زمن المستقبل، وما يمكن أنْ يحدث من التطوّر الممنهج، ممّا يجعل الوجود حركةً دائمةً نحو ما لم يتحقّق بعد.
هذان النسقان يعكسان رؤيتين مختلفتين للوجود:

- القرية تُعيد الإنسان إلى تكرار كوني يذكّره بدورانه مع الطبيعة.
- المدينة تدفعه نحو مشروع وجودي يطمح إلى التغيير والاختراع.

هذا التوتّر بين "الدوْر" و"السير" يوازي التوتّر بين أنْ يكون الوجود إعادةً لما هو قائم أو فتحًا لما هو جديد، وقد لا يكون متوقّعًا.

خلاصة فلسفيّة تناولها جبران في نتاجه الأدبي

وفي خلاصة فلسفيّة عميقة تتبدّى في نتاج جبران خليل جبران، حيث لا تُختزل ثنائيّة المدينة/القرية في كونها تقابلًا جغرافيًّا، بلْ تغدو تجسيدًا لتوتّرٍ وجوديٍّ عميق، وصراعٍ داخليٍّ بين ما هو كائن وما ينبغي أنْ يكون. إنّها مواجهةٌ بين الإنسان في حدّه الطبيعي، والإنسان في أفق إمكاناته المتخيَّلة، بين ثقل الواقع وانفلات الحلم.

في أفق القرية، يتكثّف معنى الانتماء في صورته الأكثر صفاءً: دفء الروابط، وصدق العيش، وأصالة الذاكرة التي تحفظ للإنسان جذوره وهويّته. هناك، يتجلّى الزمن بوصفه امتدادًا للحنين، وتتحوّل الحياة إلى نسيجٍ من العاطفة واليقين.

أمّا المدينة، فتنبثق كفضاءٍ مفتوح على الاحتمال، حيث تتبدّد الحدود، وتتشظّى المعايير، ويغدو الإنسان كائنًا متحرّرًا من القيود، لكنْ على حساب استقراره الداخلي. فهي مشروعٌ دائم، تتكاثر فيه الأسئلة، وتبقى الأحاسيس معلّقة بين الممكن والمقموع، وكأنّها تكتب وجودها في هامشٍ لا يكتمل.

وهكذا، يقف الإنسان الجبراني معلّقًا بين ضفّتين: ذاكرةٍ تمنحه الجذور، وحلمٍ يدفعه إلى التجدّد، في سعيٍ لا ينتهي نحو توازنٍ مستحيل بين صدق الانتماء وحرّيّة التشكّل.

ولذلك، لا تبدو المدينة عند جبران مجرّد فضاءٍ مكاني، بلْ تتحوّل إلى كينونة حيّة: قلبٌ نابض، وذاكرةٌ متحوّلة، ومسرحٌ تتجسّد عليه أعقد تحوّلات الإنسان الحديث، حيث يُختبر جوهره في صراعه الدائم بين الأصالة والاغتراب، وبين الحضور والانفلات.

وإذنْ فثنائية المدينة/القريّة ليست تقابلًا بين مكانين فحسب، بلْ هي مرآة للجدل الوجودي، والصراع الفكري بين الإنسان كما هو، والإنسان كما يريد أنْ يكون ضمن هذا المتاح وهامش الممكن.
القرية تمثل الانتماء، الترابط الأسري، والأصالة، والصدق، في حين نجد المدينة تمثّل الاحتمال، والتقلّبات الدائمة ومن غير ضوابط .

القرية ذاكرة، عشق وحنين، والمدينة مشروع كتب على الأحاسيس أنْ تبقى في غياهب السجون، والإنسان يتأرجح بينهما بحثًا عن توازن بين أصالة جذوره وحريّة مستقبله. باختصار، تتجاوز المدينة عند جبران خليل جبران كونها مجرّد إطارٍ مكاني، لتغدو كيانًا حيًّا نابضًا: قلبًا متحوّلًا، وذاكرةً متجدّدةً، ومحفّزًا للحركة، ومسرحًا تتجسّد فيه أعمق التحوّلات الإنسانيّة والاجتماعيّة. ومع ذلك، تظلّ على مسافةٍ من دفء الأحاسيس، وكأنّها تفصل نفسها عن قيمها، فتمنح العقل اتّساعه، لكن دون أنْ تحتضن الروح في صفائها.

الفرع الثاني: ثنائية المدينة/القرية في بعدها الفلسفي عند جبران

تتجلّى ثنائيّة المدينة/القرية في نتاج جبران خليل جبران بوصفها بنيةً فلسفيّةً عميقةً، بحيث تتجاوز الوصف المكاني إلى مساءلة جوهر الإنسان نفسه، وإذا بها تتحوّل إلى استعارة كبرى للصراع الدائر بين الوجود الأصيل والوجود المتشيّئ، بين الكينونة كما تُعاش في صفائها، والكينونة كما تُعاد صياغتها تحت ضغط الحضارة وإسقاطاتها.

فالقرية عند جبران ليست مجرّد فضاءٍ جغرافي، بلْ هي حالة وجوديّة تنتمي إلى البدايات الأولى للإنسان، حيث تتقاطع الطبيعة مع الروح في وحدةٍ متناغمة. إنّها تمثّل الوعي غير المفكّك، ذلك الذي يعيش في انسجام مع الزمن الدوري للطبيعة، فتغدو الحياة فيها أقرب إلى الطقس منه إلى المشروع، وإلى الامتداد منه إلى القطيعة. في هذا الفضاء، لا ينفصل الإنسان عن جذوره، بلْ نجده يتجه في مسار يظلّ فيه متّصلاً بذاكرةٍ جمعيّة تُغذّي هُويّته، وتمنحه شعورًا بالثبات واليقين. غير أنّ هذا الثبات، في عمقه الفلسفي، قد يحمل طابعًا محافظًا يحدّ من إمكان التجدّد، ويُبقي الإنسان داخل دائرة المعطى، لا الممكن.

في المقابل، تتبدّى المدينة عند جبران بوصفها فضاءً للانفصال والتجاوز، حيث يتحرّر الإنسان من سلطة الجماعة، ويُدفع إلى اختبار ذاته في أفقٍ مفتوح من الاحتمالات. إنها تمثّل العقل في مواجهته للطبيعة، والإرادة في سعيها لإعادة تشكيل العالم وفق تصوّراتها. لكن هذا التحرّر لا يأتي بلا ثمن؛ إذْ تنقلب المدينة أحيانًا إلى فضاء للاغتراب، حيث تتفتّت الروابط، وتتبدّد المعاني، وتغدو العلاقات أقرب إلى التعاقد منها إلى الانتماء، وأقرب إلى الوظيفة منها إلى القيم.

من هنا، تتأسّس ثنائيّة المدينة/القرية عند جبران على جدل فلسفي بين الأصالة والحداثة، بين الانتماء والحرّيّة، بين الذاكرة والمستقبل. فالإنسان، في هذا التصوّر، كائنٌ مأزومٌ يسعى إلى التوازن بين هذين القطبين، دون أنْ ينجح في الانحياز الكامل إلى أحدهما. إنّه يحنّ إلى بساطة القرية بوصفها رمزًا للصفاء، وفي الوقت نفسه ينجذب إلى اتّساع المدينة بوصفها أفقًا للحرّيّة.

وهكذا، لا تُقدَّم المدينة والقرية عند جبران كبديلين متعارضين فحسب، بلْ كحالتين وجوديّتين تكشفان عن مأزق الإنسان الحديث: ذلك الكائن المعلّق بين جذورٍ تمنحه المعنى، وأفقٍ يدفعه إلى التمرّد، بين يقينٍ يطمئنه، وقلقٍ يحرّكه. وضمن هذا الجدل الفكري تحديدًا، تتجلّى فلسفة جبران العميقة، حيث لا خلاص إلّا في وعي هذا الانقسام، لا في إنكاره.

ويمكن رصد تلك الملامح التأمّليّة، بما تنطوي عليه من أبعادٍ فلسفيّة، من خلال العناصر الآتية:

1. ثنائيّة الروح والمادّة

يقول جبران في *دمعة وابتسامة*:

"في القرى تنمو الأرواح كما تنمو الأزهار، أمّا في المدن فتنمو الأقنعة» (جبران 1920، دمعة وابتسامة 72). هنا يحمل قول جبران خليل جبران في *دمعة وابتسامة* بنيةً رمزيّةً كثيفةً، تتجاوز المفارقة السطحيّة بين القرية والمدينة إلى طرح سؤالٍ عميق حول طبيعة الكينونة الإنسانيّة نفسها: أهي حقيقةٌ تتكشّف، أم صورةٌ تُصنَع؟

عندما يقول إنّ "في القرى تنمو الأرواح كما تنمو الأزهار"، فهو يستدعي صورةً عضويّةً تنتمي إلى عالم الطبيعة، حيث النموّ يحدث بصورةٍ تلقائيّة، في بيئةٍ متّسقة مع إيقاع الوجود. هنا، لا يحتاج الإنسان إلى تمثيل ذاته أو إخفائها، لأنّ الانسجام بين الداخل والخارج يجعل الكينونة شفّافةً، تنمو في هدوء، وتكتمل دون ضجيج. إنّها حالة من الأصالة الوجوديّة، حيث تتطابق الذات مع حقيقتها، وتتحقّق في بساطتها الأولى.

في المقابل، تأتي العبارة الثانية: "أمّا في المدن فتنمو الأقنعة"، لتكشف عن تحوّلٍ وجوديٍّ عميق، حيث تنتقل الكينونة من منطق الانكشاف إلى منطق التخفّي. فالقناع هنا ليس مجرّد زينة اجتماعيّة، بلْ آليّة دفاعٍ نفسيّ ووجوديّ، يفرضها تعقّد العلاقات وتشابك المصالح وضغط التوقّعات. في المدينة، لا يعود الإنسان يُدرك كما هو، بلْ كما يُراد له أنْ يُرى، فيتشكّل وفق أدوارٍ متعدّدة، ويعيد إنتاج ذاته عبر تمثيلاتٍ مستمرّة، حتى يغدو القناع أحيانًا أكثر حضورًا من الوجه الحقيقي.

ومن زاوية فلسفيّة، يمكن قراءة هذا التباين بوصفه صراعًا بين "الطبيعة" و"الاصطناع"، أو بين "الأصالة" و"التمثيل". فالقرية تمثّل فضاءً يسمح بانبثاق الوجود في عفويّته، بينما تمثّل المدينة فضاءً يدفع الوجود إلى إعادة صياغة نفسه وفق شروط البقاء والقبول. وهنا تتبدّى إشكاليّة عميقة: هل يفقد الإنسان حقيقته كلّما اقترب من التحضّر؟ أم أنّ الأقنعة ليست سوى وسيلةٍ للتكيّف مع عالمٍ أكثر تعقيدًا؟

بهذا المعنى، لا يُدين جبران المدينة بقدر ما يكشف عن ثمنها الوجودي: فكلّ تقدّمٍ في مستوى التنظيم والعقلنة قد يقابله تراجعٌ في مستوى الصدق والشفافيّة. وتغدو الأقنعة، في هذا السياق، علامةً على اغتراب الإنسان عن ذاته، حيث يُستبدل النموّ الروحيّ الطبيعيّ بنموٍّ شكليّ قائمٍ على التمثيل والتكيّف.

وهكذا، يقدّم النصّ رؤيةً فلسفيّةً تنزع إلى مساءلة الحضارة الحديثة، لا برفضها المطلق، بل بكشف التوتّر الكامن فيها: بين ما يحقّق الإنسان خارجيًّا، وما يخسره داخليًّا، بين ازدهار المدينة، وذبول الروح، حيث يقترن نمو الأرواح بالمكان الطاهر، بينما يقترن نمو الأقنعة بالمكان المريض.

2. الحنين كوعي معرفي وفكري

- "أشتاق إلى وطنٍ لم تعُد تسكنه قدماي، بل تسكنه روحي" (جبران 1920، 81). هذا تعبير جبران خليل جبران" : *أشتاق إلى وطنٍ لم تعُد تسكنه قدماي، بل تسكنه روحي* " حيث يفتح الحنين من كونه شعورًا عاطفيًّا بسيطًا إلى كونه بنيةً معرفيّةً ووعيًا ووجوديًّا عميقًا. فالحنين هنا لا يُختزل في الذاكرة كاسترجاعٍ لماضٍ غائب، بلْ يتجاوز ذلك ليصبح طريقةً في إدراك الذات للعالم، وآليّةً لفهم علاقة الإنسان بوجوده.

وفي هذا السياق، لا يعود "الوطن" مكانًا جغرافيًّا يمكن الوصول إليه، بلْ يتحوّل إلى فضاءٍ داخليٍّ يسكن الروح. وهذا التحوّل يكشف عن انقلابٍ دلالي: من الخارج إلى الداخل، ومن الملموس إلى المتخيَّل، ومن المكان إلى المعنى. فالإنسان لا يحنّ إلى الأرض بقدر ما يحنّ إلى الحالة الوجوديّة التي مثّلتها تلك الأرض: الطمأنينة، الانتماء، والانسجام بين الذات والعالم.

وهنا يغدو الحنين فعلًا معرفيًّا، لأنّه يشتغل كأداةٍ لإعادة بناء المعنى؛ فهو لا يستعيد الماضي كما كان، بلْ يعيد تشكيله وفق حاجات الحاضر. إنّه وعيٌ يُنتج معرفةً من خلال الفقد، ويُعيد تعريف الهُويّة عبر الإحساس بالغياب. فالإنسان لا يعرف ذاته كاملةً إلّا من خلال ما يفتقده، وما يظلّ متعذّر التحقّق ويطمح لإدراكه.

ومن زاويةٍ فلسفيّة، يمكن النظر إلى هذا الحنين بوصفه تعبيرًا عن قلق الكينونة: فالكائن الإنساني يعيش دائمًا في حالة افتراق بين ما هو عليه وما ينشده، بين الحضور والغياب. ولذلك، يصبح الحنين محاولةً دائمةً لردم هذا الانقسام، أو على الأقلّ للتخفيف من حدّته. إنّه وعيٌ بالانقسام، وسعيٌ نحو وحدةٍ مستحيلة.

كما أنّ انتقال الوطن من الجسد (القدمين) إلى الروح يحمل دلالةً عميقة: فالوطن لم يعد شيئًا يُسكن، بلْ صار حالةً تُعاش. وهذا يحرّر الحنين من قيد المكان، ويجعله تجربةً وجوديّةً تتكرّر داخل الذات، كلّما اصطدمت هذه الذات بواقعٍ لا يطابق ذاكرتها أو توقها، فالحنين هنا ليس جغرافيًا يفتقر إلى المكان، بل هو وجوديّ في الشعور والإحساس.

وهكذا، لا يعود الحنين مجرّد رجوع إلى الوراء، بلْ يصبح حركةً معرفيّةً تتّجه إلى الداخل، حيث يعيد الإنسان صياغة علاقته بنفسه وبالعالم. إنّه وعيٌ يربط الماضي بالحاضر، لا ليُثبّته، بلْ ليكشف هشاشة الحدود بينهما، وليُعلن أنّ الإنسان، في جوهره، كائنٌ لا يكتمل إلا عبر ما يفتقده.

3. الطبيعة والمعنى

في *النبي*:

"وقد وهبتْكم الأرض جمالاً، فلماذا تهبونها الإسمنت والحديد؟" (جبران 1923).

هذا سؤال أخلاقي – فلسفي يختبر علاقة الإنسان بالتقنية، حيث يأتي هذا القول على لسان جبران خليل جبران في *النبي ليطرح* سؤالًا يتجاوز النقد المباشر إلى مساءلةٍ فلسفيّة عميقة لطبيعة علاقة الإنسان بالعالم: هل الإنسان واهبٌ للمعنى أم ناسخٌ له؟ وهل التقنية امتدادٌ للوجود أم قطيعة معه؟

حين يقول" *وقد وهبتْكم الأرض جمالاً*"، فهو يُحيل إلى فكرةٍ جوهريّة مفادها أنّ الطبيعة ليست مجرّد مادةٍ خام، بلْ هي معنى قائم بذاته، تنطوي على جمالٍ أصيل لا يحتاج إلى تبرير. فالأرض، في هذا التصوّر، تحمل دلالةً جماليّةً وروحيّةً سابقةً على أيّ تدخّل بشري، وكأنّها لغةٌ صامتة تُخاطب الحسّ والوجدان قبل أنْ تُترجم إلى أدوات أو منشآت.

في المقابل، تأتي العبارة" *فلماذا تهبونها الإسمنت والحديد؟* "لتكشف عن قلقٍ أخلاقيّ تجاه نزوع الإنسان إلى إعادة تشكيل الطبيعة وفق منطق السيطرة والإنتاج. فالإسمنت والحديد هنا ليسا مجرّد موادّ بناء، بلْ هي رموزٌ جامدة لتحويل العالم من فضاءٍ حيّ إلى بنيةٍ خاملة تخلو من أيّ لمسة إنسانيّة حانية، ومن كيانٍ يُعاش إلى شيءٍ يُستعمل. إنّها إشارة إلى خطر "التشييء"، حيث تتحوّل الطبيعة من كينونةٍ ذات معنى إلى موردٍ وظيفي.

ومن منظورٍ فلسفي، يختبر هذا السؤال الجدل الحادّ بين بعدين أساسيّين في الوجود الإنساني:
البعد الجمالي – الروحي الذي يرى في العالم قيمةً قائمةً بذاتها، والبعد التقني– النفعي الذي يعيد تعريف العالم بوصفه مادّةً قابلةً للتشكيل والاستثمار. ولا يقف جبران عند حدود الإدانة، بلْ نجده يطرح إشكاليّةً أعمق: هل يمكن للتقدّم التقني أنْ يظلّ متصالحًا مع البعد الجمالي والروحي للوجود؟ أم أنّ كلّ توسّعٍ في "التشييد" يحمل في طيّاته تراجعًا في "التأمّل"؟

هنا يتجلّى البعد الأخلاقي للسؤال؛ فالمسألة ليست في البناء بحدّ ذاته، بلْ في الدافع الذي يقف خلفه، وفي الرؤية التي تحكمه. فإذا كان البناء يستند إلى رؤية تُقصي الجمال وتستبدل المعنى بالمنفعة، فإنّه يتحوّل إلى فعلٍ يهدّد التوازن الوجودي بين الإنسان والعالم. أمّا إذا كان نابعًا من وعيٍ يحترم روح المكان ويصون طبيعته، فإنّه يغدو امتدادًا خَلّاقًا للطبيعة، لا قطيعةً معها.

وبهذا المعنى، لا يدعو جبران إلى رفض التقنية، بلْ إلى إعادة توجيهها أخلاقيًّا، بحيث لا تُحوّل الأرض إلى مجرد "شيء"، بلْ تبقى شاهدًا على جمالٍ مشترك بين الإنسان والكون. إنّه نداءٌ لاستعادة الحسّ بالمعنى في زمنٍ يهدّد فيه الإسمنت والحديد بإخفاء لغة الأرض الأصليّة.

وفي أفق هذا الوعي الفلسفي، لا يبدو التشاؤم مجرّد حالةٍ نفسيّة عابرة، بلْ يتبدّى كبنيةٍ معرفيّة راسخة في وجدان المبدعين، تمتدّ جذورها من أبي العلاء المعري إلى نازك الملائكة وأبي القاسم الشابي، لتجد تجلّيها الخاصّ عند جبران خليل جبران . إنّه تشاؤمٌ لا يصدر عن عجزٍ، بلْ عن وعيٍ حادّ باختلال العالم، وعن إدراكٍ عميق للتصدّع القائم بين ما ينبغي أن يكون وما آل إليه الواقع الإنساني.

وفي هذا السياق بالذات، يتحوّل التشاؤم إلى طاقةٍ احتجاجيّة، تدفع الشاعر إلى التمرّد على سطحيّة الواقع ورفض مدنيّةٍ يراها زائفة، وقد فرغت من جوهرها القيمي. ومن هنا، تأتي قصيدة «*المواكب*» بوصفها إعلانًا وجوديًّا صارخًا، يستهلّه جبران بحكمٍ يكاد يكون قاطعًا:

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا / والشرّ في الناس لا يفنى وإن قبروا
وأكثر الناس آلاتٌ تحرّكها / أصابع الدهر يومًا ثم تنكسر

في هذه الرؤية، ينكشف الإنسان بوصفه كائنًا مُشيَّأ، فاقدًا لفاعليّته الأصيلة، محكومًا بقوى خارجيّة تُحرّكه وتُحدّد مصيره. وهنا يتجلّى البعد الفلسفي للتشاؤم الجبراني: إنّه ليس حكمًا أخلاقيًّا فحسب، بلْ تشخيصٌ لاغتراب الإنسان الحديث، حيث يتحوّل من ذاتٍ حرّة إلى مجرّد أداة ضمن منظومةٍ أكبر. وأمام هذا الانكسار، لا يجد جبران خلاصه في إصلاح المدينة، بلْ في مغادرتها رمزيًّا؛ إذْ تنقلب المدينة في وعيه إلى فضاءٍ خانق، تهيمن عليه الآلة، وتُختزل فيه الحياة إلى إنتاجٍ واستهلاك، فتفقد الطبيعة معناها، ويتحوّل الإنسان إلى كائنٍ مبتور الصلة بأصله. ومن هنا، ينبثق الحنين إلى الطبيعة لا بوصفه نزعةً رومانسيّةً ساذجةً، بلْ كفعل مقاومةٍ وجوديّة، وسعيٍ لاستعادة المعنى المفقود. وتتجلّى هذه العودة في صورة «الغابة المتخيّلة»، التي لا تمثّل مجرّد مكانٍ بديل، بلْ أفقًا رمزيًّا للبراءة الأولى. فهي صورةٌ مُصفّاة من شوائب الواقع، تستعيد في عمقها ذاكرة الطفولة في بشري، حيث عاش جبران تماسّه الأوّل مع الطبيعة، في فضاء غابات الأرز. غير أنّ هذه الغابة لا تُستعاد كما هي، بلْ يُعاد تخييلها وتكثيفها، لتغدو أقرب إلى فردوسٍ مفقود: ربيعٌ دائم، لا موت فيه ولا قبور، زمنٌ معلّق خارج الفناء، وحياةٌ متحرّرة من القلق والعدم.

وهكذا، تتحوّل «الغابة» إلى معادلٍ فلسفي للجنّة، لا بوصفها وعدًا أخرويًّا، بلْ كإمكانيّةٍ جماليّة تُقاوم قبح الواقع. إنّها استعادةٌ للانسجام الأصلي بين الإنسان والطبيعة، بين الروح والعالم، في مقابل انقسام المدينة وتشظّيها.

في المحصّلة، لا يُفضي التشاؤم الجبراني إلى العدم، بلْ إلى بناء بديلٍ تخييلي، يُعيد للإنسان توازنه الرمزي. إنّه تشاؤمٌ خَلّاق، يهدم الواقع لكي يُشيّد في الوعي عالمًا أكثر صفاءً، حيث لا يكون الهروب ضعفًا، بلْ بحثًا عن حقيقةٍ أعمق، وعن إنسانٍ لم تُفسده بعدُ حضارة الحديد.

وفي ظلال هذا التشاؤم يقود الشاعر للتمرّد على الواقعيّة، ويرفض المدنيّة الزائفة ويحاول الهروب إلى الطبيعة ليرتميَ في أحضانها، وهذه الرؤية التشاؤميّة لجبران في مطلع قصيدته «الخير في الناس..» هي التي دعته للفظ المدينة بحضاراتها الزائفة، ومصانعها وآلاتها الحديثة التي دمّرت البيئة وأحرقت الحياة.. وقادته للهروب نحو الطبيعة الحالمة «الغابة المتخيّلة» في ذهنيّة جبران خليل جبران، فهذه الغابة المتخيّلة تبدو لنا كصورة انعكاسيّة لما عاشه جبران خليل جبران أيام لهوه وصباه في غابة الأرز في قريته «بشري» بلبنان ، فالغابة عند الشاعر تبدو لنا كغابات مزدانة بالخيال والأساطير والجمال يحلّ فيها الربيع الدائم, ليس فيها حزن ولا هموم ، في هذه الغابات سعادة أبديّة يسقون فيها كأسًا من إكسير الغمام، في «الغابة المتخيّلة» عند جبران ليس فيها موت لا ولا فيها القبور، ودائمًا تتوالى عليها أشهر نيسان «إبريل» فالربيع يسكنها حقبًا وأزمانًا ودهورًا، ولعلّها صورة اقتبسها جبران من القرآن الكريم في وصف الجنّة.

وتبدو صورة المدينة مشوّهةً عند شاعرنا جبران شأنه في ذلك كشعراء الوجدانيّين والرومانسيّين الذين دائمًا ما تعالق نصوصهم الإبداعية الطبيعة، فهم يضيقون ذرعًا بأسوار المدينة، ويتبرمون من واقعهم بكلّ ملذاته وشهواته وملهياته، وينشدون الحلم على ضفاف الطبيعة وبساطها الجميل، تلك التي لم تلوّثها رياح التغيير وأدران الحضارة وزيف العصر بكلّ مستحدثاته ومستجدّاته، ودائمًا ما يتجدّد هذا الحلم في كثير من قصائدهم، ولهذه القصيدة «المواكب» التي غنت بعضَ مقاطعها «فيروز» نظائر في الشعر العربي الحديث منها قصيدة «من أجل عينيك» للشاعر عبد الله الفيصل، وصدحت بها «كوكب الشرق» وفيها يحلم الشاعر بمغادرة العالم والسكنى في أحضان الطبيعة والارتشاف مع الحبيبة كؤوسًا من الهوى.

والغابة المتخيّلة لجبران خليل جبران لا تتشكّل صورتها إلّا بأنين «الناي»، فالفناء يرعى العقول وأنين «الناي» أبقى من مجيد وذليل، وأنين الناي أبديّ يظلّ يعزف - على حدّ تصوّره- بعد أنْ تفنى الحياة والشموس وتنطفئ النجوم، واختار جبران الناي لأنّها ترتبط بالحزن، وهو من سمات الشعر الرومانسي. فالشاعر الرومانسي لا بدّ أنْ يحزن، وإنْ لم يحزن فسيظلّ شبحًا تلفظه الرياح في كلّ مكان، ولذا فهو حريص على وجوده وحضوره الدائم في هذا الكون بالعكوف عند الأطلال باكيًا شاكيًا حزينًا. وفي أفق الرؤية الجماليّة – الفلسفيّة عند جبران خليل جبران، لا تكتمل صورة «الغابة المتخيّلة» بوصفها فردوسًا بديلًا إلّا بحضور النغم الملائكي الصادر عن «الناي»، لا كأداة موسيقيّة فحسب، بلْ كرمزٍ أنطولوجيٍّ عميق يكشف عن طبيعة الوجود ذاته. فالغابة، على صفائها وبراءتها، ليست صمتًا مطلقًا، بلْ هي فضاءٌ مشحونٌ بأنينٍ خفيّ، يعبّر عن ذلك صراع ابدي وجدليّة دائمة بين الفناء والخلود.

وحين يقول جبران: إنّ «أنين الناي أبقى من مجيد وذليل»، فإنّه يعيد ترتيب سلّم القيم: فكلّ ما يتعلّق بالاجتماع البشري—من مجدٍ أو ذلّ، من سلطةٍ أو سقوط—زائلٌ ومؤقّت، بينما يبقى الأنين، أي الصوت المنبثق من أعماق الروح، بوصفه تعبيرًا خالصًا عن جوهر الإنسان. هنا يتحوّل الأنين إلى لغةٍ كونيّة، تتجاوز التاريخ والطبقات والمصائر، وتستمرّ حتى بعد أفول الحياة وانطفاء النجوم، وكأنّه الأثر الأخير للوجود في وجه العدم.

وإنّ اختيار «الناي» تحديدًا ليس اعتباطيًّا؛ فالناي، في رمزيّته العميقة، آلةٌ فارغة من الداخل، لا تُصدر صوتها إلّا عبر الفراغ الذي يسكنها. وهذا الفراغ ذاته هو شرط النغم، كما أنّ النقص هو شرط التعبير. بهذا المعنى، تغدو آلة الناي استعارةً للإنسان: كائنٌ مجروح، مثقوب بالغياب، لا يستطيع أنْ يقول ذاته إلّا عبر هذا الجرح. ومن هنا، فإنّ الأنين ليس ضعفًا، بْل هو أصدق أشكال الوجود، لأنّه ينبثق من حقيقة الفقد.

وفي سياق الرومانسيّة، لا يُفهم الحزن بوصفه انفعالًا عابرًا، بل كحالةٍ معرفيّة تتيح للذات أنْ تنفذ إلى أعماقها. فالشاعر الرومانسي لا يحزن لأنّه عاجز، بلْ لأنّه يرى أكثر، ويحسّ بما لا يُرى. إنّه كائنٌ يقظٌ إزاء هشاشة العالم، ولذلك يتّخذ من الحزن موقفًا وجوديًّا، لا هروبًا بلْ كشفًا. وإذا فقد هذا الحزن، فقد شرط رؤيته، وغدا—كما يُلمح التصوّر—شبحًا بلا جذور، تقذفه الرياح لأنّه لم يعد يمتلك ما يربطه بالمعنى. ومن هنا، يصبح

الوقوف عند الأطلال، والبكاء، والشكوى، طقوسًا معرفيّةً قبل أنْ تكون عاطفيّةً؛ إنّها محاولات لاستنطاق الغياب، ولإعادة وصل الذات بما انقطع منها. فالشاعر، في بكائه، لا يرثي الماضي فحسب، بلْ يؤسّس وعيًا بالزمن، ويدرك أنّ الوجود لا يُقاس بما يبقى، بلْ بما يتركه من أثرٍ في الروح.

هكذا، يتكامل مشهد «الغابة» و«الناي» في فلسفة جبران: الطبيعة تمنح الصفاء، لكنّ الأنين يمنح العمق؛ الأولى تُعيد الإنسان إلى براءته، والثاني يكشف له مأساته. وبين الصفاء والمأساة، يتشكّل الوعي الإنساني، لا بوصفه يقينًا مكتملًا، بلْ كصوتٍ حزينٍ مستمرّ، يعزف في وجه الفناء، ويؤكّد—رغم كلّ شيء—أنّ الإنسان كان هنا.

الخاتمة

يكشف البحث أنّ جبران قد بنى ثنائيّة المدينة/القرية على أساس فلسفي عميق، لا على أساس جغرافي أو اجتماعي فحسب، فالقرية رمز للجوهر الإنساني، والمدينة رمز للاغتراب. وهكذا يقدّم جبران رؤية وجوديّة تتجاوز شعره لتلامس سؤال الإنسان المعاصر حول علاقته بالمكان، وبذاته، وبالعالم. وفي ظلال هذا الطرح لم يُشيّد جبران ثنائيّة المدينة/القرية على أساسٍ وصفيٍّ سطحيّ، بلْ أقامها على بنيةٍ فلسفيّة تمسّ جوهر الوجود الإنساني. فالمسألة عنده لا تتعلّق بتقابل مكانين، بلْ بتقابل نمطين من الكينونة: كينونةٍ متجذّرة في أصلها، وأخرى منقطعة عن ذاتها.

فالقرية، في هذا الأفق، ليست فضاءً جغرافيًّا بقدر ما هي تمثيلٌ للجوهر الإنساني في حالته الأولى؛ حيث تتماهى الذات مع طبيعتها، وتنسجم مع إيقاع الوجود دون انقسام. إنّها لحظة الامتلاء الوجودي، حيث لا يشعر الإنسان بالحاجة إلى تبرير نفسه، لأنّه ببساطة "يكون". أمّا المدينة، فتغدو رمزًا للاغتراب، لا بمعناه الاجتماعي فقط، بلْ بمعناه الأنطولوجي العميق: اغتراب الإنسان عن ذاته، حين تتحوّل علاقته بالعالم إلى علاقة وسيطة، محكومة بالأدوار، والوظائف، والتمثيلات، بدل أنْ تكون علاقة حضورٍ أصيل.

ومن هنا، تتجلّى الرؤية الوجوديّة عند جبران: الإنسان ليس كائنًا مستقرًّا، بلْ هو كائنٌ في حالة انشطار دائم بين ما هو عليه وما فقده. إنّه يحمل داخله ذاكرة الأصل (القرية)، ويعيش في واقع الانفصال (المدينة)، ويتأرجح بين حنينٍ يستدعيه إلى جذوره، وواقعٍ يدفعه إلى مزيدٍ من التباعد.

بهذا المعنى، تتحوّل هذه الثنائيّة إلى أداةٍ تأمليّة لفهم مأزق الإنسان المعاصر، الذي لم يعد يسكن المكان بقدر ما يسكنه القلق. فالسؤال لم يعد: أين يعيش الإنسان؟ بلْ: كيف يعيش ذاته داخل هذا العالم؟ وهل يستطيع أنْ يستعيد انسجامه الداخلي في ظلّ واقعٍ يفرض عليه التشيؤ والتجزئة؟

إنّ جبران، عبر هذه الرؤية، لا يدعو إلى الانسحاب من المدينة بقدر ما يكشف عن ثمنها الوجودي، ولا يمجّد القرية بوصفها بديلًا مطلقًا، بلْ بوصفها ذاكرةً رمزيّة تُذكّر الإنسان بما فقده. وهكذا، تتجاوز كتاباته حدود الشعر لتغدو تفكيرًا في شرط الإنسان ذاته: كائنٌ يسعى إلى أن يكون، في عالمٍ يدفعه إلى أن يبدو.

إن جدليّة المدينة والقرية في شعر جبران ليست مجرد مقارنة مكانيّة، بلْ هي تعبير رمزي عن أزَمة الإنسان الحديث. فالقرية عنده ليست مكانًا فيزيائيًّا، بلْ هي أصل روحي، بينما تمثّل المدينة فقدان هذا الأصل تحت وطأة الحياة الصناعيّة. ويمثّل هذا الصراع محورًا أساسيًّا في فلسفته الجماليّة والوجوديّة، ويؤسّس لفهمٍ عميق لموقع الإنسان بين الطبيعة والحضارة.

لقد عاش جبران بين صلابة المدينة وعلوّها، في قلب ناطحات سحاب نيويورك، غير أنّ روحه ظلّت معلّقةً هناك، حيث وادي قاديشا وسكونه العميق، وحيث أرز لبنان الممتدّ في ذاكرة الزمن. لم يكن هذا التعلّق مجرّد حنينٍ إلى مكانٍ غائب، بلْ كان توقًا أنطولوجيًّا إلى حالةٍ من الوجود افتقدها في صخب الحداثة.

فالناي الذي يحلم به، والطبيعة التي يستدعيها، ليسا عناصر خارجيّة، بلْ هي رموزٌ لصفاءٍ داخليّ، ولانسجامٍ أوليّ بين الإنسان وذاته. إنّ الحنين هنا يتجاوز الجغرافيا ليغدو رحلةً إلى الداخل، حيث يسعى الإنسان إلى استعادة ذاته الأولى قبل أنْ تُثقلها التجربة وتُشوّهها الحضارة.

ومن هذا المنظور، تغدو بشري—بجمال طبيعتها وبكارتها—أكثر من مسقط رأس؛ إنّها المنبع الروحي الذي غذّى خيال جبران، وأيقظ نزوعه الصوفيّ، فكانت الطبيعة فيها مرآةً للغيب، وجسرًا يصل الحسّ بالمطلق.

وهكذا، فإنّ اغتراب جبران في المدينة لم يكنْ نقيضًا لانتمائه، بلْ شرطًا لوعيه به؛ إذْ لم يدرك عمق ارتباطه بالطبيعة إلّا حين ابتعد عنها. فصار الحنين لديه ليس مجرّد شوقٍ إلى الماضي، بلْ وعيًا حادًّا بالذات، وسعيًا دائمًا لاستعادتها في عالمٍ يمعن في إبعاد الإنسان عن جوهره.

النتائج

يمكن استخلاص جملةٍ من النتائج الفكريّة والفلسفيّة من هذا البحث حول ثنائيّة المدينة/القرية عند جبران خليل جبران، أبرزها:

1. **البعد الفلسفي للثنائيّة:** تبيّن أنّ ثنائيّة المدينة/القرية ليست مجرّد تقابلٍ مكاني، بلْ هي بنيةٌ رمزيّة تعبّر عن صراعٍ وجوديّ بين الأصالة والاغتراب، وبين الكينونة في صفائها والكينونة في تشظّيها .
2. **القرية بوصفها جوهرًا وجوديًّا:** تمثّل القرية عند جبران فضاءً للأصالة والانسجام، حيث يتجلّى الإنسان في حالته الطبيعيّة المتّصلة بذاته وبالكون، بعيدًا عن التعقيد والتشيؤ .
3. **المدينة كفضاءٍ للاغتراب**: تكشف المدينة عن وجهٍ حضاريّ متقدّم ظاهريًّا، لكنّه يحمل في عمقه انقطاعًا عن القيم الروحيّة، وتحويلًا للإنسان إلى كائنٍ وظيفيّ محكوم بمنطق الإنتاج والآلة .
4. **الحنين كوعيٍ معرفيّ**: لا يُفهم الحنين عند جبران بوصفه عاطفةً ماضويّةً، بلْ كآليّةٍ فكريّة لإعادة بناء الذات، واستعادة التوازن الداخلي في مواجهة واقعٍ مفكّك .
5. **الطبيعة كبديلٍ رمزيّ**: تتجلّى الطبيعة، ولا سيّما «الغابة المتخيّلة»، كفضاءٍ تعويضيّ يستعيد فيه الإنسان صفاءه الروحي، ويقاوم به قسوة الحضارة الحديثة .
6. **التشاؤم بوصفه وعيًا نقديًّا**: لا يُعبّر تشاؤم جبران عن سلبية، بلْ عن رؤية نقديّة عميقة تكشف اختلال العالم الحديث، وتدفع نحو البحث عن معنى أكثر أصالة .
7. **الفنّ كخلاصٍ وجوديّ**: يظهر الفنّ—من خلال رموز كـ«الناي»—كوسيلةٍ لتجاوز الفناء، وتأكيد الحضور الإنساني في وجه الزوال، بوصفه أثرًا روحيًّا خالدًا .
8. **إشكاليّة الإنسان المعاصر**: تنتهي الدراسة إلى أنّ الإنسان عند جبران كائنٌ معلّق بين جذوره (القرية) وأفقه (المدينة)، يسعى إلى تحقيق توازنٍ صعب بين الانتماء والحرّيّة، بين الذاكرة والمستقبل.
9. **القرية في شعر جبران ليست مكاناً ماديًّا:** بلْ هي حالة روحانيّة، فضاء واسع، وأجواء حالمه ترتبط بالصفاء والذاكرة والطفولة، وحنين يثير كوامن الإحساس.
10. **المدينة عنده رمز للاختناق الوجودي**: ضجيج صاخب، هواء ملوّث، ولتحوّل الإنسان إلى كائن آلي مجرّد من قيمِ الإنسانيّة، ومن كلّ إحساس.
11. **يعيد جبران صياغة المكان:** بوصفه علامة رمزيّة تعكس صراع الروح والمادّة.
12. **تبرز الجدليّة**: كخطاب إنساني شامل يتجاوز تجربة الشاعر الشخصيّة إلى نقد حضاري عام، ورؤية فلسفيّة ذات بعد معرفي.

وهكذا، تكشف هذه النتائج أنّ مشروع جبران الأدبي يتجاوز البعد الجمالي، ليغدو مشروعًا فلسفيًّا يسائل الإنسان في عمق وجوده، ويبحث عن إمكان استعادة إنسانيّته في عالمٍ يزداد اغترابًا.

التوصيات

يمكن اقتراح جملةٍ من التوصيات العلميّة والفكريّة التي تنبثق من هذه الدراسة حول ثنائيّة المدينة/القرية عند جبران خليل جبران، من أبرزها:

1. **ترجمة الاعمال الأدبيّة لجبران:** ترجمة تشمل حضور الأبعاد الإنسانيّة، والدلالات الفلسفيّة والمعرفيّة.
2. **إدخال نصوص أدبيّة من نتاج جبران:** في المناهج التربويّة الدراسيّة، وتحديدًا ما يعكس واقع القريّة والمدينة كما يرى جبران ببعدها الفلسفي والإنساني.
3. **النظر من جديد للمدينة والقرّية لدى جبران:** فهي ذات رمز صوفي، وتمثّل حياة الإنسان ذات الفطرة السليمة (صالح)، والإنسان الشرير الذي لا يرى في الوجود إلّا نفسه فقط.

4. **توظيف الدراسة في الحقول التربويّة**: إدماج هذه القراءات في المناهج التعليميّة، لتعزيز الوعي النقدي لدى الطلبة، وتنمية الحسّ الفلسفي والجمالي لديهم .

5. **الانفتاح على المناهج الحديثة**: توظيف مناهج نقديّة معاصرة (السيميائيّة، التأويليّة، النقد الثقافي) في دراسة أدب جبران، لإغناء قراءته وتجاوز المقاربات التقليديّة.

6. **- التجديد والتنوّع:** في كتابة الأبحاث المتعلّقة بالأعمال الأدبيّة لجبران، بحيث يتمّ التركيز على نظرته الرومانسيّة فيما يتعلّق بالمدينة والقريّة، وربطها بالبعد الفلسفي.

7. **توسيع المقاربة الفلسفيّة**: يُوصى بتعميق دراسة أدب جبران في ضوء الفلسفات الوجوديّة والظاهراتيّة، للكشف عن أبعادٍ أعمق لعلاقة الإنسان بالذات والعالم .

8. **المقارنة مع أدب المهجر**: إجراء دراسات مقارنة بين جبران وسائر أدباء المهجر، لرصد تجلّيات ثنائيّة المدينة/القرية في سياقات ثقافيّة وتجارب اغتراب مختلفة .

9. **تحليل مفهوم الاغتراب**: توسيع البحث في مفهوم الاغتراب عند جبران، وربطه بالتحوّلات الحضاريّة الحديثة، وبخاصّة في ظلّ العولمة والتسارع التقني .

10. **دراسة البعد البيئي**: قراءة نصوص جبران من منظورٍ بيئيّ معاصر(Eco-criticism) ، للكشف عن موقفه المبكّر من العلاقة المختلّة بين الإنسان والطبيعة .

11. **ربط الأدب بالواقع المعاصر**: الإفادة من رؤية جبران في نقد المدينة الحديثة، وربطها بإشكاليّات الإنسان المعاصر (العزلة، التشيؤ، فقدان المعنى).

12. **استثمار الحنين كأداة تحليل**: اعتماد مفهوم الحنين بوصفه مدخلًا نقديًّا لدراسة الهُويّة والذاكرة في الأدب العربي، وليس مجرّد ظاهرة شعوريّة .

13. **التركيز على الرمزيّة الجبرانيّة**: تعميق تحليل الرموز المركزيّة (كالغابة، الناي، المدينة)، بوصفها مفاتيح دلاليّة لفهم البنية الفلسفيّة في نصوصه .

وهكذا، تفتح هذه التوصيات آفاقًا بحثيّةً متعدّدةً، تجعل من أدب جبران مجالًا حيًّا للتفكير الفلسفي والنقدي، يتجدّد مع تحوّلات الإنسان وأسئلته عبر الزمن.

المراجع

جبران، خليل جبران .(1920) .*دمعة وابتسامة* .القاهرة: دار الهلال .

جبران، خليل جبران .(1923) .*النبي* .نيويورك .

جبران، خليل جبران .(1950) .*العواصف* .بيروت: مؤسسة نوفل .

جبران، خليل جبران .(1965) .*المواكب* .بيروت: دار الآداب .

جبران، خليل جبران .(1980) .*الرسائل* .بيروت: دار صادر .

خوري، مي .(2008) .*جبران والمدينة: قراءة في الاغتراب* .بيروت: دار النهار .

ناصيف، فايز .(1999) .*جبران شاعر المهجر* .بيروت: دار العلم للملايين .

زيدان، جرجي .(2001) .*الأدب المهجري وتطوره* .القاهرة: دار المعارف.